

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

منهج بناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم

The article title: The Approach for constructing the notion of religion throughout the Holy Quran

الكاتب: رشيد الإدريسي

الرتبة العلمية: باحث في الدكتوراه - الدراسات الإسلامية

جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس - المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس-سايس.

elidrissirashid2014@gmail.com

تاريخ النشر: 2020/03/01	تاريخ القبول: 2020/01/06	تاريخ ارسال المقال: 2019/12/28
-------------------------	--------------------------	--------------------------------

المرسل: رشيد الإدريسي باحث في الدكتوراه

رشيد الإدريسي باحث في الدكتوراه

منهج بناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم

الملخص:

إن من أحسن ما اهتم به الباحثون بناء المفاهيم التي تُعد مفاتيح العلوم، ومن أهم هذه المفاهيم: مفهوم الدين؛ لأن الدين به قوام الإنسان وبه تزكو حياته الخاصة والعامة. ومن أجل ذلك لا بدّ من الاهتمام الكبير بالمنهج الذي يحقق المفهوم الصحيح والقويم للدين، وهذا يتطلب إلماما كبيرا واستيعابا شاملا ونظرة كلية لمكونات الدين وخصائصه وغيرها، مما لا يمكن التوصل إليه إلا بمنهج محكم، من أجل إحسان تنزيل الدين على أرض الواقع بمفهومه الشامل. وقد عرض هذا المقال مقترحا لمنهج بناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم، وذلك بعد عرض نموذجين لمن اعتمدوا القرآن الكريم لبناء هذا المفهوم.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم - المنهج - بناء المفاهيم - الدين - محمود شاكر - عزمي بشارة - البحث العلمي.

Abstract:

Among the best researchers' interests, is setting up concepts that are considered to be the keys to Science. Chiefly, the notion of religion. With it, Man rectifies both his private and public life.

In this regard, great Importance must be given to the manner that fulfills the right and correct perception of religion. This requires a considerable grasp of the components and characteristics of religion, which cannot be attained without an elaborate process- in order to establish thoroughly Religion in its entire meaning.

The following article suggests an approach for constructing the notion of religion throughout the Holy Quran dealing with the two former cases.

Key Words: The Holy Quran – The Approach – Constructing Concepts – The Religion – Mahmoud Chakir – Azmi Becharah – The Scientific Research.

مقدمة:

يعتبر المنهج أهم ما أسهم به الباحثون لتيسير المعرفة، وتتمثل أهميته في ترشيد البحث العلمي وعصمته من الانحراف. ولعل من أولى المجالات المعرفية التي يظهر فيها أثر المنهج في البناء المعرفي، بناء المفاهيم¹؛ لأن المفاهيم أوعية كلية تستوعب معاني عظيمة تكتنزها ألفاظها. ويكون بناؤها بالإحاطة بمعانيها أولاً، واعتبار تجردها ثانياً؛ وذلك لا يكون إلا بفقه دلالاتها الأصلية والطارئة، واستخراج مكوناتها وخصائصها، وضبط ما يندرج تحتها من المفاهيم الجزئية، ووضع شبكة مفهومية يتجلى بها بناء المفهوم.

ولما كان الدين -أي دين- أكبر قضية اهتمت بها الإنسانية، باعتباره الأساس لتصوراتها والموجه الأول لها في الحياة عموماً² -بل هو موجه أيضاً للمفاهيم نفسها-، استحق أن يُدرج في قائمة المفاهيم التي لزم بناؤها أولاً، وفق منهج علمي دقيق، بغض النظر عن الأمد الذي قد تُمضيه في البحث باعتماد هذا المنهج. لذلك جاء هذا المقال مؤسساً على قيمة الدين العالية في النفوس، وجاء أيضاً تصحيحاً للخلل الذي أصبحنا نلاحظه اليوم في مفهوم الدين، وما ترتب على ذلك من تجزيء له، أو تضيق لمجالات العمل به والاحتكام إليه. وهذا الواقع يدل على أننا لم نتعرف على الدين -بعد- على الوجه الصحيح، بما في ذلك الدين الذي يدين به كل واحد منا³.

ولذلك كان اقتراح منهج لبناء مفهوم الدين ضرورياً، ليصبح دليلاً عملياً للدارسين في علم الأديان، على اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم؛ لأنني قدمت فيه مقترحاً يجمع -في رأبي- بين الضبط والتوجيه والتقصيد، كما يمكن بعد تجريده من خصوصيته القرآنية، تطبيقه على غير القرآن الكريم من النصوص الدينية أو غيرها؛ لأجل بناء مفهوم الدين، أو بناء مفاهيم أخرى.

ولقد اخترت القرآن الكريم أساساً للبناء ومنطلقاً له؛ باعتباره كتاباً محفوظاً من كل تحريف أو تعطيل أو انتحال، ومقامنا هذا الذي نبحت فيه عن الحق، لا بد له من اعتماد مصدر لا ريب فيه؛ كي نصل إلى البناء المطلوب.

والإشكالات التي انطلقت منها لإنجاز هذا المقال هي: هل نحن في حاجة إلى وضع منهج لبناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم؟ وما هي الإضافة التي يمكن تحقيقها للبحث العلمي باعتماد القرآن الكريم في تحديد مفهوم الدين؟ ثم ما هو الجديد الذي قد يحققه هذا المنهج المقترح في بناء هذا المفهوم -أو غيره- من القرآن الكريم؟

وقد بنيت الجواب على هذه الإشكالات في هذا المقال، على عدد من المناهج المعتمدة اليوم لبناء المفاهيم⁴، وضمنت المقال عنصرين اثنين: أولهما عرضت فيه نموذجين لبناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم، والآخر خصّصته للمنهج الذي اقترحت لبناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم، وهو مقال جمع بين التنظير والتطبيق بما تضمنه من نماذج لبناء مفهوم الدين، وأمثلة تبين من خلالها إمكانية تطبيق المنهج المقترح.

1 - نماذج لمناهج بناء مفهوم الدين من القرآن الكريم:

إن معظم النماذج التي وقفت عليها في بناء مفهوم الدين، اقتصرّت على جوانب متعددة لبناء تصور لمفهوم الدين، أو على تعاريف غريبة له، وخاصة عند علماء الاجتماع وعلماء النفس والفلاسفة. وقليل من غاص في القرآن الكريم لاستخراج مكنوناته التي يمكن أن يُبنى بها مفهوم الدين، وفق منهج محدد المعالم. ومن أهم ما اطلعت عليه في الباب: كتاب الدين، لمؤلفه محمد عبد الله دراز⁵، وكتاب تاريخ ومعرفة الدين، لعلي شريعتي⁶، وهما

يكملان بعضهما بعضا، من جهة المنهج الذي اعتمدته كل منهما فيما يقصده من بيان الدين، تعريفًا وتأسيسًا وتأصيلًا. غير أن الذي ميّز محمد عبد الله دراز في دراسته هو ما خلص إليه، من أن فهم الدين وأصله في الإنسانية، من خلال القرآن الكريم، هو أشمل وأجمع؛ لأنه: "كتاب الإنسانية المفتوح، ونهلها المورود، فمهما تباعد الأقطار والعصور، ومهما تعدد الأجناس والألوان واللغات، ومهما تتفاوت المشارب والنزعات، سيجد فيه كل طالب للحق سبيلا ممهدا، يهديه إلى الله على بصيرة وبينة"⁷. ولعل المتتبع لمسار البحث العلمي في مجال بناء مفهوم الدين يلحظ التجربة المتميزة لكل من محمود محمد شاكر⁸ وعزمي بشارة⁹، ويتجلى تميزهما في اعتمادهما على القرآن الكريم لبناء هذا المفهوم، من خلال الآيات التي تضمنت لفظة "الدين"، بالرغم من اختلاف منهج كل واحد منهما عن الآخر وهدفه، ولذلك أحببت أن أطلع القارئ على هذين النموذجين، قبل أن أعرض تصوري الخاص الذي استقيته من خلال دراسات متعددة حول بناء المفاهيم.

أ - منهج محمود محمد شاكر لبناء مفهوم الدين:

يُعَدّ محمود محمد شاكر من الذين حملوا مشعل التدقيق والتحقيق في التراث عموما، واستمر على ذلك حتى صار له منهج خاص عُرف به، أطلق عليه في كثير من مؤلفاته منهج التدقيق¹⁰. ولقد درس مفهوم الدين في كتاب: أباطيل وأسمار¹¹، في مقالتين مستقلتين متتابعتين، وبدأ بيانه بقوله: "ولفظ الدين من ألفاظ اللغة التي لها في الذهن صورة جامعة، أو ينبغي أن تكون لها صورة جامعة. فواجب أن نعرف تمام المعرفة حقيقة معنى الدين، وما تراكم عليه من المعاني الحادثة المتجددة، وأن نحاول محاولة صادقة تؤدي بنا إلى بلوغ كنه الروابط التي تجمع هذه المعاني، وتشدّد قديم معانيه وحديثها بعضها إلى بعض شدا محكما، حتى يدل اللفظ على معناه المركب، وهو المعنى الذي له صورة جامعة في الذهن، يدركها عند سماعه"¹². وهو بهذا الكلام يؤكد حاجة الدين إلى مزيد من البيان، مما لم يرقّ لحد الآن إلى المستوى المطلوب.

وقد تتبعته طريقته في بناء مفهوم الدين من خلال كتابه المذكور، فتوصلت إلى ما يلي:

-لقد استخرج محمود شاكر -في المقالة الأولى- المعاني الظاهرة لكلمة الدين، كما هي في اللغة¹³ والقرآن الكريم، ليصل إلى أن الدين عندنا -وهو الإسلام-، إنما هو ما أنزل الله على نبيه من وحي؛ قرآنا وحديثا وسنة. وقد تميز حديثه في مقالته الأولى حول الدين بالإجمال والإيجاز، ولهذا أتبعها بمقالة ثانية بين فيها دلالات الدين ومعانيه في القرآن الكريم، وهي امتداد للأولى وبنائها عليها.

-في المقالة الثانية، قام بترتيب معاني الدين في اللغة، بحسب المراحل التي مر منها اللفظ في نظره، إلى أن وصلت حملته الدلالية ما بلغته من معنى جامع مركب. وهو -في نظري- ترتيب منطقي لعدم وجود ما يثبت تدرج مفهوم الدين في ضم تلك المعاني¹⁴ التي ذكرها له واحدا بعد الآخر، وقال: "ويصير اللفظ بعد ذلك مشترك المعاني، لا بد لصاحب اللغة من أن يميز أيّ هذه المعاني المشتركة هو المراد في العبارة، بلا غفلة عن المعاني الأخرى التي تتداول اللفظ وتركبه"¹⁵، وقد استنتج بعد ذلك أن للدين معنيين، مفرد ومركب؛ فالمعنى المفرد هو مطلق الخضوع والتعبد لإله معظم دون تمييز، والمعنى المركب هو ما يطلقه أهل كل ملة على ما يؤمنون به ويلتزمون، وهو جامع للمعتقد والأخلاق والشرائع العملية وأصول النظر والاستدلال¹⁶.

- عرض دلالات الدين من القرآن الكريم معتمدا تقسيم آيات كلمة الدين حسب الصيغ الصرفية التي ورد بها؛ من الأفراد والإضافة والتعريف والتكثير، مع التنصيص على مواضع ورودها، وتحديد المعنى الذي دلت عليه. لكنه¹⁷.
- استخراج معاني الدين من الآيات التي ورد فيها من القرآن الكريم الذي نزل بمكة، وقد حددها في أربعة معان، هي:

الجزاء والحساب والثواب والعذاب الذي يكون يوم الدين.

الطاعة والإخبات لله تعالى وحده، وما يتفرع عنه من مخالفات بشرية لهذا التوجه الخالص لله سبحانه.
سلطان الملك وقضاؤه.

السيرة والطريق، وهو أخص هذه المعاني كلها.

وقد توصل محمود شاكر من تتبعه للقرآن المكي إلى نتيجة؛ مفادها أن ما نزل بمكة من الإسلام نفسه، وما كان عليه المشركون من الشرك، وما عليه أهل الكتاب من الدين المحرف، وما كان عليه أقوام الأنبياء السابقين من الضلال؛ ليس ديناً بالمعنى الجامع، وإنما هو دين بمعناه المفرد الدال على الخضوع لمعبود ما، وسيأتي بيان ذلك ووجهه عنده.

- قام بتحديد معاني الدين من القرآن المدني، وموازنة ما توصل إليه بما سبق في القرآن المكي. وقد خلص إلى أن الدين بمعناه الأول الذي هو المجازاة غير موجود في القرآن الذي نزل بعد الهجرة، إلا في آية واحدة من سورة النور، هي قول الله تعالى: "يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ"¹⁸.

والمعاني التي حددها للدين من القرآن الذي نزل بالمدينة -بالإضافة إلى المعنى المذكور- هي:
الطاعة والخضوع وإفراد الله بالألوهية.

الإسلام.

ثم قال محمود شاكر في نهاية مقالته حول الدين: "فصار بيّنا بعد هذا أن الله سبحانه لا يرضى لنا أن نسمي شيئا من الملل من نصرانية ويهودية وغيرهما: "دينا"، سوى ملة أبينا إبراهيم عليه السلام، وملة أنبيائه جميعا، وهي (الإسلام) (دين الله) الذي لا يقبل من عباده دينا سواه، والذي أرسل به رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ليبطل الملل كلها، ولا يكون شيء منها يسمى "دينا" سوى "الإسلام".¹⁹. وإن هذه النتيجة لمن الأهمية بمكان، وتحتاج إلى تحقيق وبيان. ولقد بنى محمود شاكر هذا الرأي على ما تقدم من تفريقه بين الدين بمعناه المفرد الذي يفسر به كل صاحب معتقد الدين حين ينظر إلى ما يدين به غيره، وهو مطلق الخضوع لمعبود ما، وبمعناه المركب أو الجامع، وهو الذي يراه كل صاحب دين فيما يدين به؛ ويتألف من عقائد وشرائع وآداب وأصول النظر والاستدلال. فهذا المعنى الأخير للدين هو الذي قصده محمود شاكر في نفيه إطلاق لفظة الدين على غير الإسلام الكامل. ثم إنه لم يقف عند هذا الحد، بل إنه استدلل لرأيه هذا بآيات قرآنية؛ منها قوله الله تعالى: "وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم"²⁰، وقوله سبحانه: "إن الدين عند الله الإسلام"²¹. وبغض النظر عن مدى صحة هذه النتيجة، فهو قد بناها على استقراء لموارد اللفظ، ونظر في تركيبه وسياقاته²².

ومن الخطوات المهمة في بناء مفهوم الدين عند محمود شاكِر: دعوته إلى الرجوع لما عند اليهود والنصارى؛ لأجل استخراج معنى الدين ومفهومه؛ إذ قال: "ينبغي أن ندلّ على معنى "الدين" عند أهل الكتابين، كما هو ظاهر في كتابيهما، لكي يظهر الفرق بين معنى "الدين" عند أهل الإسلام، ومعناه عندهما. وإذا ظهر هذا الفرق، استطعنا أن نحدد مكاننا الذي ينبغي أن نقف فيه، وأن نزيل اللبس الذي يؤدي إلى اختلاط معاني الألفاظ على المتكلمين والسامعين، أو على الكاتبين والقارئین. وليس هذا الأمر من اليسر بالمكان الذي يتوهمه المرء عند النظرة الأولى، بل هو أمر شديد التعقيد، أرجو أن أستطيع حل عقده، حتى لا يتورط القارئ فيها، وحتى لا تشبه عليه السبل، في زمان نحن أحوج ما نكون فيه إلى الدقة والتغلغل والنفاذ إلى أعماق المعاني والألفاظ بلا حيرة ولا بلبلة وعي عن بلوغ أقصى ما نطيق من التمييز".²³

وهذا مستوى مهمّ من بناء مفهوم الدين، وهو من صميم علم مقارنة الأديان (أو حوار الأديان)، وهو مجال أوسع مما اقترحه محمود شاكِر؛ لأن رواده اليوم تجاوزوا ما عند أهل الكتاب إلى كل ما يمكن تسميته ديناً أو معتقداً في هذا العصر²⁴، مع أنني لم أقف في حدود بحثي المتواضع على من تتبع مفهوم الدين عند اليهود والنصارى من خلال كتبهم. وهذه الخطوة داخلية فيما أسماه أصحاب المعهد العالمي للفكر الإسلامي في مقترحهم لخطوات البناء²⁵: سيرة المفهوم (تطوراً وتاريخاً ومآلاً) في الأدبيات الأجنبية، وذلك بتتبع التطور الدلالي للمفهوم في لغته الأصلية، وتحديد معناه الشائع الآن، ورحلته بعد الترجمة (مفهوماً وأشخاصاً)، وما اشتمل عليه من فساد أو إفساد، أو هما معاً، لأن ما جاء في الكتابين هو من الأدبيات الأجنبية، والنظر فيه من الأهمية بمكان؛ لمعرفة موقع ما عندنا مما عندهم.

ومن خلال ما تقدم يظهر أن الشيخ محمود شاكِر قدّم مثالا جادا لدراسة مفهوم الدين، يحسن بنا الاستعانة به في بحوثنا الآن؛ من أجل بناء مجموعة من المفاهيم القرآنية التي تحتاج إلى الدراسة والتحقيق، كما يمكن اعتباره نموذجاً إجرائياً في تتبع الدقيق لتاريخ اللفظة، واستعمالاتها، وصيغها، وسياقاتها، وما يمكن استنتاجه بعد ذلك من دلالات.

أ - منهج عزمي بشارة لبناء مفهوم الدين:

لقد اخترت عزمي بشارة، ليكون نموذجاً مقترحاً للدراسة بسبب أنه اعتمد القرآن الكريم وتفسيره حلقة في بناء مفهوم الدين. وقد أفرد لهذا المفهوم فصلاً كاملاً من كتابه: الدين والعلمانية في سياق تاريخي²⁶. وتميز منهجه في البناء بخطوة تطبيقية مهمة، قال عنها: "حاولت تتبع لفظة الدين في داخل متون التراث العربي الإسلامي - لا بحثاً عن التعريفات بل عن الدلالات المرتبطة باللفظ ذاته أصلاً، خاصة حين يأتي في سياقات بنائية تفكك دلالاتها وتشكلاتها، أو في سياقات تعريفية اصطلاحية أو مفهومية فقهية أو صوفية أو تاريخية"²⁷. وما يهمني من بيانه هو ما له علاقة بالقرآن الكريم، لكن لا بد من عرض منهجه كاملاً مختصراً؛ لما له من أهمية في وضع منهج قرآني لبناء مفهوم الدين. وقد تنقّل عزمي بشارة بين عدة كتب باحثاً عن معاني الدين؛ عرضاً وموازنة وترجيحاً واستنتاجاً²⁸، وفيما يلي ذكر الخطوات التي اتبعها في بناء هذا المفهوم:

- لقد بدأ بتتبع معاني اللفظ في المعاجم اللغوية العربية، وتوصل إلى أن "غالبية الاشتقاقات والمعاني مشتقة من هذا التفسير المبكر للفظ عند الخليل بن أحمد".²⁹، والمعاني التي ذكرها الخليل للدين هي: الجزاء والحساب والطاعة والعادة.³⁰ وقد تدرج في الأخذ من المعاجم زمانيا بدأ بالخليل بن أحمد الفراهيدي مروراً بابن دريد والزحشري، وانتهاء بابن منظور في لسان العرب.

- ثم أتبع البيان اللغوي معاني لفظة "الدين" في القرآن الكريم؛ واعتمد في بيان مفهوم الدين على بعض كتب التفسير وعلوم القرآن. وهذا العنصر هو الذي يعينني أكثر مما سواه؛ لأنه متعلق بما أود اقتراحه من منهج بناء مفهوم الدين. ويلاحظ فيه أن عزمي بشارة لم يتجرأ على الاستنباط المباشر من القرآن الكريم، لاستخراج مفهوم الدين، بل اتبع سبيل المفسرين في ذلك، مع المناقشة والاختيار والترجيح باعتماد الآيات نفسها، كما أنه اكتفى -مثل محمود شاكر- على الآيات التي ورد فيها اللفظ دون غيرها، إلا نادراً. ومن تعليقات بشارة على المصادر التي اعتمدها قوله: "تعاملت كتب التفسير مع لفظ الدين بحسب سياقاتها المضمونية والتنزيلية، أي سبب النزول في داخل المتن القرآني، مستعينين بالمرجعية المعجمية للفظ، من دون الغوص في أسئلة المفهوم النظري للدين، أو الأهداف الكامنة وراء بعض الاستخدامات القرآنية للفظ في مواضع بذاتها ومعان محددة".³¹ وهذا يؤكد أهمية مقالي هذا، وما يقترحه من منهج للبحث في مفهوم الدين من القرآن الكريم، خاصة أن عزمي بشارة لم يسر في هذه السبيل، وإنما سلك مسلك التحليل لختويات بعض التفاسير، لينتصر لمنهجه في استيعاب هذا المفهوم وبنائه، كما سأذكره في نهاية عرض طريقته.

وقد أكد في هذا العنصر على معان محددة؛ لتكون توطئة للقول بأن النموذج العلماني -في نظره- هو الأسلم لضبط أمر الدين ومفهومه. ومن المعاني التي ذكرها وأرى أنه يحسن التوقف عندها؛ ما أورده من تفسير ابن عباس لـ "خلق الله" بأنه الدين، من قول الله تعالى: "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ"³². ثم تناوله قضية الفطرة، لينهي حديثه بأن قال: "الفطرة هنا ما خلق الله للناس من أجله. أما إذا استخدمت لغة غير دينية لا تسلم بأن الإنس والجن خلقوا لغاية هي العبادة، فيمكن قراءتها أن الفطرة هي ما خلق الله للناس عليه. هنا تحديد أن الدين فطرة، أي بلغتنا أن الناس خلقوا عليها، لا من أجلها. وإذا وسعنا معنى عبارة أن الإنسان والجن خلقوا ليعبدوا إلى مفهوم العبادة باعتبارها سعيًا وصلاً وفلاحاً في الدنيا، فالعبادة عمل وعبادة الله عمل الخير، نصبح أمام احتمالات واسعة للتفسير والتأويل"³³.

وبغض النظر عما يريده عزمي بشارة؛ فلعل هذين المعنيين يساعدان في حل بعض الإشكالات المتعلقة بأصل الدين ومبتدئه الأول، مثل: هل الدين وجد قبل الإنسان؟ أو نشأ مع خلق الله تعالى له؟ أو أوتي بعد هبوطه إلى الأرض؟ وهذا أمر محوري في مفهوم الدين، نبه عليه علي شريعتي بقوله: "إن حقيقة الدين وليس الأديان (يتطلب بحثاً خاصاً ومنفصلاً حيث يُبحث كلُّ أمر بصورة تحليلية منفصلة) في ذات وفطرة الإنسان"³⁴. أقول: لكنه يمثل مرحلة من البحث، وليس البحث كله.

- عرض عزمي بشارة تعريف الدين عند الفلاسفة وعلماء الكلام، وبين مدى اقتراب ما أبدعوه مما توصل إليه علماء الاجتماع اليوم. والبارز في انتقاله لهذا العنصر، أنه اختار له عنوانا هو: "من اللفظ إلى التعريف: علماء الدين في اقتراحهم من جهد العلوم الاجتماعية في التعريف بالدين"³⁵. وفي قوله هذا تعريض بأن تاريخ الاهتمام بالدين هو اهتمام باللفظ ودلالاته، دون المفهوم الشامل. وبالرغم من أنه يخدم مقالي هذا من حيث أهمية موضوعه؛ إلا أن عزمي بشارة يهيئ بذلك للقول بالنموذج الذي يشرحه هو لبناء مفهوم الدين، وكأن القرآن الكريم أو التفاسير، ليست في المستوى الذي يمكن بناء هذا المفهوم باعتمادها.

ومن الأمور التي استوقفتني، وأنا أتبع منهجه لبناء مفهوم الدين، تعليقه على رأي إخوان الصفا في تعريفهم للدين؛ حيث قال: "نحن نجد عند إخوان الصفا بداية فصل شبه وظيفي علماني بين الدين والدنيا يمكن من تعريف الدين"³⁶. وهذا الأمر يدعو إلى مجموعة من التساؤلات؛ منها: هل كل فصل بين الدين والدنيا يسمى علمنة؟ وهل قول إخوان الصفا يعني -بالفعل- فصلا بين الدين وغيره؟. ذلك أن إخوان الصفا قالوا -كما نقل عنهم عزمي بشارة نفسه- إن "الدين هو شيان اثنان: أحدهما هو الأصل وملاك الأمر وهو الاعتقاد في الضمير والسر، والآخر هو الفرع المبني عليه القول والعمل في الجهر والإعلان"³⁷، ولا أرى -شخصيا- في هذا فصلا، وإنما هو بيان لأصل الدين وما يتفرع عنه وهما متلازمان ولا ينفصلان، كما يفهم منه أنه لا وجود للدين بدون عقيدة أساس، ولا يكمل الدين إلا بما تفرع عنه من أعمال وأخلاق.

- ثم اعتمد عزمي بشارة في بنائه لمفهوم الدين على اللغات الأخرى، وبخاصة اللغة العبرية واللاتينية، متحدثا عن معضلة الترجمة³⁸، وعن طبيعة الدين في الديانات الأخرى من خلال المصطلح، وعرض بعض التعاريف الغربية له³⁹، وناقش دلالات الدين فيها؛ مبينا ما يمكن استفادته من ذلك. ثم خلص إلى أهمية الدراسات الاجتماعية في تحليل محتويات لفظة الدين عند معتنقي كل دين، واعتماد المشترك بينها لإبراز خصائص الدين عموما. وقد نوه الدكتور عزمي بشارة هنا بأهمية ملاحظة التطبيقات لاستنباط الظواهر، لا الوقوف عند التعريفات النظرية⁴⁰. وفي طريقه للوصول إلى هذه النتيجة؛ تحدث عن بعض التطبيقات الدينية عند اليهود، والهندوس، وما وصف به الرحالة العرب الشعوب في تديّنهم، وما عند علماء الانثروبولوجيا، مع تحليل معاني بعض الكلمات المرادفة لفظة الدين في لغات أخرى، والموازنة بينها لتحديد المشترك والخاص.

- ثم اعتمد على ما في علم الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع والتاريخ، لبيان قصور التعريفات التي وضعت للدين؛ حيث ذكر آراء عدد من المفكرين والفلاسفة الغربيين⁴¹ حول الدين والتدين؛ نظريا وعمليا، مروراً بمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني في تأثرهم ببعض الغربيين، لينتهي إلى انتقاد دراستين في تعريفهما للدين: الأولى عبارة عن كتاب معدّ للتدريس في جامعة ابن سعود الإسلامية⁴²، والأخرى هي التفسير العقلاني للدين، هذا الاتجاه الذي يمثله عدد من الفلاسفة الغربيين، من رواد التحليل النفسي وعلم الاجتماع.

وقد انتهى الدكتور عزمي بشارة من بيانه لمفهوم الدين إلى القول بأن معرفة الدين في واقعنا الحالي، لا يمكن أن تحصل إلا بتبني النموذج العلماني⁴³؛ إذ قال: "ما عاد بحث الدين ممكنا في عصرنا من دون الولوج إلى مفهوم العلمانية والعلمنة..."⁴⁴. ومعلوم أن العلمانية (أو العلمنة) مبنية على التمييز بين مستويين من الحياة؛ يجتمعان في كل إنسان، هما الدين والدنيا، أو السلطة الروحية والسلطة الزمنية، وأن العلمانية في أصلها مُلتبسة؛ لأن تعريفها يختلف من مدرسة فكرية إلى أخرى⁴⁵، ومن هذا الأساس يمكن الاعتراض على اختيار الدكتور عزمي بشارة بعدد من الإشكالات، منها:

كيف يمكن أن نصل إلى مفهوم الدين من طريق النموذج العلماني الذي يقصر الدين في مجال محدود؟ وكيف يمكن نجاحه في مساعدة الباحث في تفسير هذا المفهوم المشكل: "الدين" وهو يرفض تحكيمه في جميع مجالات الحياة؟ وأتى لتوجّه هذا شأنه أن يفسر الدين ويبيّن مفهومه أو يُعين على ذلك؟ مع أنه يفصل أي شيء له علاقة بالدين عن الحياة الاجتماعية، ويدعو إلى حرية الدين، لكن في معزل عن المجتمع⁴⁶؛ لأن النموذج العلماني ينقلنا من المجال الواسع للدين كما يعرضه القرآن الكريم، إلى مجال محدود لا يتجاوز الجانب العقدي والتعبدية بمعناه الضيق، بالإضافة إلى أن العلمانية اسما وتنظيرا وتطبيقا دخيلة علينا، ونبتت في غير حضارتنا وبعيدا عن قيمنا وثقافتنا، فكيف نحاكم إليها ديننا الذي هو عصمة أمرنا؟

وبغض النظر عن النتائج التي أراد عزمي بشارة تقريرها لأجل بناء مفهوم الدين، وفصلا بين المنهج وما قد يسفر عن اعتماده من الثمرات؛ لا بد من التنويه بالطريقة التي سلكها في بيان هذا المفهوم، فهي مهمة وجديرة بالتبّع؛ لكونها تمثل نموذجا تطبيقيا لبناء المفهوم، يحسن بالدارس أن ينظر فيه ويتأمله، ويفيد منه ما أمكن في تحقيق المفاهيم، كي يُسهم في بناء الدين وتحديد في الأذهان والنفوس.

ومن خلال عرض النموذجين المتقدمين لمحمود شاكر وعزمي بشارة؛ يظهر بأن هناك فراغا منهجيا في بناء مفهوم الدين؛ فمع أنهما اعتمدا القرآن الكريم في بناء مفهوم الدين، فهما لا يمثلان بطريقتيهما إلا مرحلة من البناء فقط، كما أنهما لم يؤسسا ذلك على رؤية عميقة لبناء المفهوم⁴⁷، كما هو الشأن في الدراسات العلمية التي اعتمدت - مثلا - من لدن المعهد العالمي للفكر الإسلامي ومنهج الدراسة المصطلحية، الذين يتبنّيان مناهج محددة، وإجراءات منضبطة لبناء المفاهيم. ومن أجل ذلك أحبت الإسهام بمقترح علمي يمثل خلاصة ما أدته من مناهج متعددة لبناء المفاهيم.

2- النموذج المقترح لمنهج بناء مفهوم الدين من القرآن الكريم:

إن المنهج الذي أقدمه في هذا المقال، يهدف إلى تكوين رؤية قرآنية شمولية حول مفهوم الدين؛ بل هو صالح لغيره من المفاهيم القرآنية، كما يمكن تطبيقه على أي نص يتضمن مفهوما أو مفاهيم؛ من مجالات علمية مختلفة، بعد تجريد المنهج المذكور من خصوصيته القرآنية، كما يمكن اعتماده معيارا للحكم على طرق بناء المفاهيم عامة من القرآن الكريم؛ من وجهة نظر معرفية لا مصطلحية لفظية. وسبب اختياري للقرآن الكريم من أجل تطبيق هذا المنهج؛ لكونه جاء بالدين الحق، كما جمع زبدة الرسالات السابقة؛ لقوله تعالى: وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ⁴⁸.

وفيما يلي المناهج اللازمة، والخطوات المقترحة، والمقاصد المرجوة؛ لأجل بناء مفهوم الدين، وسأعرضها مرتبطة بلفظة "الدين" أو مجردة عنه؛ لأنني أراها مفيدة في أي مفهوم يراد دراسته منها وموضوعا:

أ - مناهج ضرورية:

أقصد بالمناهج الضرورية ما يلزم استيعابه وتمثله من الباحثين قبل تطبيق هذا المنهج المقترح لبناء مفهوم الدين وغيره من المفاهيم. وهدفي التنبيه على أن من يريد بناء أي مفهوم علمي بطريق مستوعب، يحسن به عدم الاقتصر على المناهج البحثية المعروفة، سواء في صيغتها التراثية، أو كما اصطُح عليه اليوم بمناهج البحث؛ بل إن على وارد بناء المفاهيم أن يبدأ بالاطلاع على المناهج العلمية التي أبدعها رواد العلوم والمعارف المختلفة وضبطها، وعدم الاكتفاء بما أنتجه علماء الإسلام من المناهج؛ بل يتعداهم إلى ما عند الغربيين الذين لا ينكر أحد أنهم أبدعوا في قضية المناهج أيما إبداع، مع إخضاع المناهج الغربية لما أسماه رواد المعهد العالمي للفكر الإسلامي بأسلمة المعرفة، ووضعها في قوالب شرعية تتفق مع البحوث القرآنية، ودون أن تمس أصولنا⁴⁹؛ ويمكن قياس ذلك على ظاهرة المعرب من اللغة العربية؛ فهو أعجمي من حيث أصله الذي أخذ منه، لكنه عربي من جهة ما آل إليه؛ بالنظر إلى القواعد التي أخضع لها، والقوالب التي وضع فيها.

ومن المناهج التي يمكن الاستفادة منها في بناء مفهوم الدين وغيره من المفاهيم القرآنية، أذكر منها خمسة، هي:

- **المنهج الوصفي:** وقد ذكرته بالرغم من أنه أول منهج يسلكه الدارسون في أبحاثهم؛ لأن كثيرا من المختصين في الدراسات الإسلامية - وخاصة القرآنية - يطبقونه بحذر وتوجس، أو يقتصرون على بعض ما يدل عليه دون بعض، واقتصر بعض الباحثين في تطبيقه على الوصف الشكلي، أكثر من الوصف المنهجي والموضوعي للنصوص، وتحديد العلاقات الرابطة بين مكوناتها، مما ترتب عنه تحصيل نتائج هزيلة إلى حد بعيد، كما أن هذا المنهج تبنى عليه جميع الخطوات المنهجية والموضوعية في أي بحث علمي كما هو معروف. والتطبيق الدقيق والصحيح للمنهج الوصفي - هنا -، يكون باستخراج المكونات المنطوقة كلها في كل آية، فلا تشذ أي صغيرة أو كبيرة في الآيات عن الوصف؛ بما في ذلك حروف المعاني وأساليب الربط بين الكلمات والجمل، ثم إعادة ترتيبها وتصنيفها إلى أقسام تصلح للدراسة العلمية، توصلنا إلى فهم جيد ودقيق لكتاب الله تعالى، وإلى استخلاص نتائج عملية تمكننا من تطبيق أي القرآن الكريم تطبيقا سليما.
- **مناهج تحليل الخطاب:** وأخص بالذكر ما يتعلق بتفكيك النصوص، وفرز مكوناتها، والجانب الصوتي في كلمات الآيات، مع مراعاة التناسب في القرآن الكريم، واستحضار السياق بجميع أنواعه.
- **منهج الأسلوبية الإحصائية الوظيفية:** وهو يقوم على استخراج الألفاظ من النصوص، والأوصاف التي صاحبها، وإحصاء ذلك كله، ثم استنباط نتائج وظيفية ودلالات عملية؛ يفسر بها التوافق في الإحصاء، أو الاختلاف والتفاوت فيه⁵⁰.

- علم المناسبة والمتشابه اللفظي: ويمكن اعتماده لتحديد المعاني الممكنة، وأسباب الاتفاق والاختلاف في تقديم الألفاظ وتأخيرها، وفي اختيار الكلمات في كل آية، وفي المناسبات الممكنة بين موضوعات الآيات ومعقباتها، وغير ذلك مما بينته كتب المناسبة والمتشابه اللفظي⁵¹.
- اللسانيات المعاصرة: وخاصة منها نظرية الحقول الدلالية؛ التي تساعد على رصد العلاقات اللغوية بين مضامين الآيات في التصنيفات التي ستوضع لها، مما سأذكره في إجراءات بناء المفهوم.
- وصحيح أن هذه المناهج لا تكفي وحدها لبناء مفهوم الدين أو غيره من المفاهيم، وإنما ذكرتها لغفلة بعض الدارسين عنها في دراساتهم للمفاهيم القرآنية خصوصاً، أو عدم الانتباه إلى أهميتها إلا بعد قطع مراحل من البحث؛ مع أنها من الأهمية بمكان في الفهم والتدبر⁵². ويبقى ضابط اختيار أي منهج لاعتماده في منهج البناء، هو مدى إسهامه في مراحل بناء المفهوم وخطواته⁵³.

ب - الخطوات الإجرائية:

- أقصد بها السبيل الذي يلزم أن يسير فيه الباحث لأجل بلوغ هدف بناء مفهوم الدين، وهذه الخطوات التي في هذا المقال سبق لي تطبيقها في دراسة قمت بها لمفهوم الربانية، وهي مراحل قابلة للتغيير والتعديل والتصحيح؛ بحسب طبيعة المفهوم، وما قد تسفر عنه عملية بناء المفهوم من نتائج مرحلية، وهذه الخطوات هي:
- أولاً، قراءة القرآن الكريم كله، واستخراج كل ما له صلة بالمفهوم؛ من قريب أو من بعيد. وقد بدأت بهذه الخطوة؛ بالرغم من أنها قد تبدو بدئية؛ كي لا يكتفي الباحث بالرجوع إلى المعاجم المفهرسة للقرآن الكريم؛ لأجل جمع الآيات القرآنية التي سيبنى بها المفهوم؛ لأن تلك المعاجم تفيد فيما يتعلق باللفظة الصريحة، أما الآيات غير الصريحة، أو التي يدل السياق على مدى دخولها ضمن آيات البناء؛ فلا يمكن رصدها إلا بتلاوة القرآن الكريم كله وتدبره. فالآيات التي تضمنت كلمة الدين في القرآن الكريم -مثلاً- لم يتعد عددها العشرات، لكن الآيات التي يمكن بناء مفهوم الدين من خلالها هي أكثر من ذلك، وبمقتضى هذا المنهج المقترح يلزم دراستها كلها.
- تقسيم الآيات بحسب مكان النزول؛ مكية ومدنية. وأهمية هذه الخطوة تتجلى في تيسير تتبع تاريخ المفهوم من أول آية نزلت فيه، إلى أن انقطع الوحي؛ من أجل رصد تطور المفهوم، والدلالات التي صاحبتة في كل مرة نزل فيها⁵⁴. ويمكن أن نبه على أن الترتيب يجب ألا يقتصر على النظر في موضع الآية من السورة؛ بل في تاريخ نزول كل آية من الآيات؛ إذ قد يتأخر نزول الآية، وتوضع بأمر الله في مكان متقدم عما نزل قبلها، في السورة الواحدة أو السور المتعددة. وهذا جهد ليس بالسهل أو اليسير.
- الفصل بين الآيات الصريحة في المفهوم، والآيات غير الصريحة؛ وذلك لأن الأولى تأسيسية؛ تعتمد في استنباط المعاني الأصلية التي يُبنى بها المفهوم، والدلالات الظاهرة التي يكتنزها لفظه. وبالمقابل، تُعتمد الآيات غير الصريحة في توسيع مجالات المفهوم، وتمديداتها، أو في التعزيز والتأكيد، أو في ضبط متعلقات المفهوم التي قد تكون ضرورية في بنائه، ولا توجد في النوع الأول من الآيات⁵⁵.

- تصنيف الآيات المستخرجة بحسب ما يصلح لبناء المفهوم؛ وأقصد هنا وضع تصنيفات متعددة للآيات المجموعة؛ بحسب مكوناتها، أو الخصائص التي تدل عليها، أو الأفعال والأسماء، أو الحروف التي تُلصق بكلماتها، أو الدالة على المعاني، وغيرها من الأقسام. وقد أمكنني -في بحث خاص- تصنيف الآيات التي ورد فيها لفظ "الدين" وحدها، إلى أزيد من ثلاثين صنفاً⁵⁶.
- اعتماد المعاجم اللغوية في معرفة معاني كل لفظة من ألفاظ التقسيم المختار؛ ذلك أن التصنيف الذي تم تقسيم الآيات على أساسه؛ عبارة عن شبكة مفاهيمية، لا بدّ من بيان معانيها اللغوية الأصلية، وتحديد الدلالات التي اكتنّتها اللفظة في مراحل استعمالها، ولتبيين بعد ذلك الإضافات النوعية التي يمكن أن تُستفاد من القرآن الكريم⁵⁷. واللغة قاعدة أساس في بيان المفهوم، وتحديد أصله الدلالي أو أصوله، وأظن أن الدين لم يوف حقّه من البحث اللغوي المعجمي والشعري؛ ولأجل ذلك على الباحث الاطلاع على ما أمكنه من المعاجم، وترتيب ذلك ترتيباً تاريخياً، وتحديد وجه التطور الذي لحق المفهوم في كل معجم، وربط ذلك بالبناء من غير إغفال لأمره في جميع خطوات البحث. وقد أحرث هذه الخطوة عن سابقاتها؛ لأن الرجوع إلى المعاجم في بناء المفهوم لن يكون مقتصرًا على اللفظ الدال عليه، بل يتعداه إلى استخراج دلالات غيره من الألفاظ التي تكوّن شبكة مفاهيم الدين⁵⁸، ويكون ذلك بعد تحديد الألفاظ التي تحتاج إلى بيان في مرحلة واحدة، لكيلا تختلط الشبكة المفهومية للفظ.
- رصد تاريخي لأقوال المفسرين في كل آية، واختيار ما يعين على بيان مراد الله تعالى من التفسير، ولهذه الخطوة أثر كبير في تعرّف الثابت والمتغير من التفسير، ورصد التطور الدلالي للمفهوم في التفاسير، واستخلاص أسباب التغيير الطارئ على المفهوم؛ بتغير الزمان والمكان. ولا يستبعد أي تفسير إلا بعد الاطلاع على ما فيه؛ لأن عدداً من التفاسير المغمورة اشتملت درراً وفوائد علمية؛ تصلح لبناء المفاهيم وبيانها⁵⁹.
- تصنيف المادة التفسيرية إلى مجمع عليه ومختلف فيه، وتحديد الإضافات النوعية عند كل مفسر، واستنباط أسباب ذلك من خلال عصر المفسر، والواقع الذي عاش فيه. وهذه الخطوة متعلقة بالتالي قبلها؛ والقصد منها هو الوقوف على الثابت باعتباره نوعاً من الإجماع أو قريباً منه، والنظر فيما يمكن مخالفته من ذلك. ثم تحديد المتغير، والبحث عن أسباب تغيره، واستخراج ما يمكن تجاوزه من التفاسير التي لا توافق واقعنا الذي نعيشه، وما يمكن بلوغه من الاجتهاد في تفسير الآيات؛ لكي نحيا عصرنا، ولا نخالف شرع الله تعالى.
- استخراج السياق المقامي لكل آية، وهو قسمان: أسباب النزول، وملابسات النزول؛ فأما الأولى فقد بينتها مؤلفات العلماء الخاصة بها، وذكرتها كتب التفسير عند كل آية وجدت لها، وهي تحتاج إلى دراسة وتحقيق لتمييز الصحيح من السقيم، سنداً وممتناً⁶⁰. وأما تحديد الملابسات فهو يتطلب من الباحث معرفة تاريخ نزول الآية بدقة ما أمكنه البحث ذلك، والنظر في أحوال المسلمين حين نزول الآية، والخروج بنتائج علمية، ستسهم يقيناً في بناء المفهوم⁶¹.

- دراسة الآيات في سياقها، ورصد أثر ذلك على المفهوم؛ إذ لا تخفى أهمية السياق في ضبط المفاهيم، وفي ظهور المناسبة بين الآيات والسور. ومعلوم أن كثيرا من الآيات اقتطعت من سياقها، فأسيء فهمها نتيجة لذلك، فكانت وبالا على الناس.
 - استخراج مكونات المفهوم، التي لا يقوم المفهوم بدونها، ويتحقق بها وجوده، وبيان مدى حضور تحليلات المفهوم المراد بناؤه فيها. وهذه المكونات ضرورية من أجل التوصل إلى وضع شبكة المفاهيم الخاصة بكل مفهوم عموما، وبمفهوم الدين على وجه الخصوص⁶².
 - استخراج خصائص المفهوم⁶³ موضوع البناء. والخصائص هي ميزات يتفرد بها المفهوم عما سواه، وهذا التميز يكون على مستويين على الأقل: أولهما تميزه عما سواه من المفاهيم الدالة على معانٍ تتقاطع معه، مثل الدين والملة، أو الشريعة والفقه، فهي مفاهيم بينها فروق؛ تبرز بتحديد خصائص كل منهما. وثانيهما أن الخصائص تميز المفهوم الواحد عند مختلف شرائح الناس التي تختلف قناعاتهم ومعتقداتهم وما يدينون به، مثل مفهوم الدين بين المسلمين كما قد يستنبط من القرآن الكريم ومفهومه عند اليهود أو النصارى من خلال كتبهم. فنجد مثلا أن خاصية الربانية في الدين الإسلامي تنطبق عليه كليا، في حين أن الأمر يختلف في الأخرى، وخاصة بعد أن طالها التحريف والتبديل.
 - استخراج مقاصد المفهوم من خلال الآيات التي تناوله، وتصنيفها حسب القوة أو الأولوية. ولا أعني هنا المقاصد الفقهية المعروفة -مع أهميتها-، وإنما مقاصد القرآن الكريم كما يمكن استنباطها من آياته، والمقاصد التي تحكم الفكر والنفس وتوجههما⁶⁴، والتي تمس كل صغيرة وكبيرة من السلوك الإنساني، كما أعني بتحديد مقاصد المفهوم ما يحققه تبني المفهوم من نتائج على الفرد والمجتمع والإنسانية؛ لأن تحديد مقاصد المفهوم من شأنه تحفيز المتلقي لقبول المفهوم المقترح، وتكون دافعا له لاستيعاب تصور، والعيش وفق المنهج الذي يفرضه في مختلف مناحي الحياة. وهذا هو الهدف الأصيل من بناء المفاهيم: أي تنزيلها ليعم نفعها واقع الناس الفكري، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، وغيرها.
 - إن هذه الخطوات الإجرائية لبناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم، هي خطوات منهجية، والسير فيها يجب أن يكون بحسب النظام الذي تم عرضه بها؛ لأن كل واحدة منها تؤدي إلى التي تليها، وأي تجاوز في ذلك سيؤثر على البناء، ويكون به نشازا غير مستقيم؛ إذ لا تتحقق المقاصد المرجوة من بحث بناء مفهوم الدين، إلا بهذا الترتيب، وهي التي سيتم عرضها في العنصر التالي.
- ج- مقاصد منهج بناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم:**
- إن المقاصد -كما هو معلوم- أرواح الأعمال؛ عملية فقهية، أو علمية بحثية، ولذلك لزم التنبيه على المقاصد التي يضعها الباحث نصب عينيه أثناء تطبيقه لمنهج بناء مفهوم الدين، وهي غير المقاصد التي تشكل البناء بالاستنباط من آيات القرآن الكريم؛ وإنما هي أهداف التأليف تجعل من البحث أمرا جديا وعلميا، وتحدد الباحثين نحو مزيد من بذل الجهد في هذا العمل المعرفي البديع، وأذكر من هذه المقاصد ما يلي:

- ملء الفراغ البحثي القائم في مجال الدين، وما يتعلق به من فروع علمية؛ وهو ضرورة معرفية لم يصل الدارسون فيها إلى المستوى الذي يستحقه الدين؛ بالرغم من كثرة الأبحاث التي اهتمت بالأديان عموما. وقد اطلعت على عدد من الدراسات حول الدين، لكل منها خصوصيته المنهجية والموضوعية؛ لكنها لا ترقى إلى بناء مفهوم الدين بالقدر المطلوب، وخاصة من خلال القرآن الكريم.
- بناء مفهوم الدين من القرآن الكريم ليكون لبنة أساسا يعتمد عليها المهتمون بعلم الأديان في أبحاثهم ومقارناتهم وحواراتهم؛ لأن هذا الكتاب له رمزيته، وله أهميته التاريخية والواقعية والمستقبلية؛ إذ هو كلام رب العالمين الذي أنزله لهداية العباد.
- التشبع بمنهج بناء المفاهيم عموما وبناء مفهوم الدين خصوصا، والتعرف على شبكة المفاهيم المشكّلة للبناء؛ لكي تُستحضر معانيها الكلية في تصورنا وإدراكنا.
- القيام بواجب واقعي ضروري، هو: تجديد الدين وإحياءه في النفوس، والإسهام في المحافظة على خصائصه ومكوناته، غضة طرية؛ وإعداد نموذج يصلح لتصحيح الأخطاء التي تتوارد على مفهوم الدين، ويصلح أيضا للتقييم والتقويم لواقع الدين في عصرنا، أو في غيره من العصور.

الخاتمة:

- إن قضية بناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم من أحسن ما أولاه الباحثون اهتمامهم، وهذا ما سعى المقال إلى التأكيد عليه، مع اقتراح نموذج تطبيقي لبيان⁶⁵، ويمكن إجمال النتائج التي تم التوصل إليها في:
- أنه بالرغم من المحاولات العلمية الجادة؛ لأجل بيان مفهوم الدين - وخاصة من خلال القرآن الكريم -، فإنها لم ترق إلى المستوى الذي يستحقه الدين؛ باعتباره فطرة إنسانية، وحاجة بشرية؛ ولذلك جاء هذا المقال؛ ليسهم في التنبيه على أهمية البحث لبناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم.
- أن النموذجين المقترحين لكل من محمود شاعر وعزمي بشارة من أجل بناء مفهوم الدين، مع قيمتهما العلمية والعملية، يحتاجان إلى إضافات منهجية وإجرائية، وإلى تقصيد عملهما بغاية بناء مفهوم متكامل، وذلك لا يتأتى إلا من خلال بناء مفهوم الدين بتحديد أسسه ومكوناته وخصائصه ومقاصده، من القرآن الكريم.
- أن القرآن الكريم كتاب محفوظ من رب العالمين، ومنزل من حكيم حميد، وهذا ما يجعل منه أساسا مهما لبناء مفهوم الدين؛ لأنه جاء بالدين الصحيح، والشامل لجميع ما يحتاج إليه الإنسان لإصلاح حياته الدنيوية والأخروية؛ ولذلك فسيكون اعتماده لأجل بناء مفهوم الدين ذا قيمة علمية رفيعة في البحث العلمي.
- أن من أهم ما يحدو عددا من الباحثين في بناء مفهوم الدين هو قناعاتهم الشخصية؛ رغبة في تأكيدها وإظهار خطأ ما سواها، وهذا يُبعد عن الموضوعية التي يطلبها بناء مفهوم الدين؛ لأن القناعات القبلية من شأنها توجيه البحث نحو مقاصد محددة مسبقا، وهو ما يتنافى مع العلمية بجميع المقاييس؛ ولهذا لزم

- الإقبال على بناء هذا المفهوم بموضوعية ونبذ الخلفيات الثقافية التي تتحكم في الإنسان أحيانا أثناء البحث العلمي.
- أن المنهج الذي اقترحته لبناء مفهوم الدين من خلال القرآن الكريم، قد بنيته من خلال دراسة عدد من النماذج البنائية للمفاهيم، ومن تجربتي الخاصة في أمر بناء المفاهيم في أبحاث أخرى، وهو مشروع مقترح للتقييم والتقويم، هدفه الإعداد لوضع بناء متكامل لمفهوم الدين.
 - أن بناء مفهوم الدين باعتماد هذا المنهج ليس بالأمر الهين؛ لذلك ينبغي أن تتظافر جهود الباحثين من أجل إتمامه، وهو مجهود ينبغي أن يضطلع به جيل كامل، وأن تتوارثه الأجيال البحثية من بعد؛ لأن لكل زمن واقعه الذي يحكمه ويوجهه. وكل باحث يمكنه أن يسهم ببحثه في وضع لبنة من لبنات بناء مفهوم الدين بحسب ما سيفتح الله له، حتى يكتمل البناء؛ لأن الدين مصاحب للإنسان دائما؛ لأنه يحكم تصورات وأفكاره ونظراته إلى الأشياء، ولن يفارقه إلى أن يأتي يوم الدين./.

لائحة المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم، برواية حفص عن عاصم.
- أباطيل وأسمار، الدكتور محمود محمد شاکر (ت1997م)، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة، الطبعة الثالثة، سنة: 2005م.
- بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، لمجموعة من المؤلفين، الناشر دار السلام القاهرة، الطبعة الأولى، سنة: 2008م.
- تاريخ ومعرفة الأديان لعلي شريعتي، ترجمة د. حسين النصري، تحقيق وتعليق الشيخ منذر آل فقيه، الناشر: دار الأمير-بيروت، الطبعة الأولى، سنة: 2008م.
- التطرف العلماني في مواجهة الإسلام (نموذج تركيا وتونس)، يوسف القرضاوي، الناشر دار الشروق، الطبعة الثالثة، سنة: 2008م.
- تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر (ت: 104هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام أبو النيل، الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر، الطبعة الأولى، سنة: 1989م.
- التفكير المقاصدي: مراجعات لترتيب العقل المسلم، جاسر عودة، الناشر: دار المشرق-القاهرة، الطبعة الأولى، سنة: 2017م.
- التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، احمد أبو زيد، الناشر: كلية الآداب الرباط، الطبع: مطبعة النجاح الجديدة-الدار البيضاء، المغرب، الطبعة سنة: 1992م.
- جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاکر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة: 2000م.
- خارطة المفاهيم القرآنية، الدكتور سيد عمر. الناشر دار الفكر دمشق، الطبعة الأولى، عام: 2009.
- دراسات مصطلحية، الشاهد البوشيخي، الناشر: دار السلام-القاهرة، الطبعة الثانية، سنة: 2012م.

- الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، دار القلم، القاهرة الطبعة العاشرة، سنة: 2010م.
- الدين والعلمانية في سياق تاريخي: الجزء الأول، عزمي بشارة، الناشر المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات-بيروت، الطبعة الأولى، سنة: 2013م.
- دور الأديان في السلام العالمي، تأليف محمد سعيد رمضان البوطي وهانز كينغ، الناشر: دار الفكر-دمشق، الطبعة الأولى، سنة: 2011م.
- علم مقارنة الأديان: أصوله ومناهجه ومساهمة علماء المسلمين والغرب في تأصيله، للدكتور حسن الباش، الناشر دار قتيبة-دمشق سوريا، الطبعة الأولى، سنة: 2011م.
- العلمانية نظرية سياسية حديثة تسعى إلى عدم الخلط بين الديني والدنيوي، عبد الهادي بوطالب بحث منشور ضمن كتاب لمجموعة من المؤلفين عنوانه: "العلمانية: مفاهيم ملتبسة"، الناشر: رؤية للنشر والتوزيع القاهرة، الطبعة الأولى، سنة: 2008م.
- المتنبي: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، دار المدني بجدة، طبعة سنة: 1987م
- المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، أحمد بسام ساعي، الناشر: المعهد للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، سنة: 2012م.
- مفهوم الأمر في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، الدكتورة جميلة زيان، الناشر: درا ابن حزم بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، سنة: 2010م.
- "المفاهيم: تكوينها وسيورتها"، أعمال ندوة من تنسيق محمد مفتاح وأحمد بوحسن، بحث: "ما المفهوم؟" للدكتور محمد مفتاح: منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، الطبعة الأولى: 2000.
- مفاهيم قرآنية، محمد احمد خلف الله، سلسلة عالم المعرفة، العدد 79، يوليو 1984.
- المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي، محمد مفتاح، الناشر المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الثانية، سنة: 2010م.
- مفهوم الإيديولوجيا، عبد الله العروي، الناشر المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة سنة: 1999م.
- مفهوم التاريخ، د. عبد الله العروي، الجزء 1: الألفاظ والمذاهب، الجزء 2: المفاهيم والأصول، الناشر: المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، سنة: 1997م.
- مفهوم الحرية، عبد الله العروي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الخامسة، سنة: 1993م.
- مفهوم الدولة، د. عبد الله العروي، الناشر: المركز الثقافي العربي، الطبعة السادسة، سنة: 1998م.
- مفهوم العقل، عبد الله العروي، الناشر: المركز الثقافي العربي، الطبعة الثانية، سنة: 1997م.

الهوامش:

¹ - لا أقصد بالمفهوم مجرد لفظ أو مصطلح له دلالة ومعنى، أو له تعريف محدد، وإنما أقصد به ما دل من الألفاظ أو المصطلحات على محتوى حضاري ينظم الحياة المعرفية والعملية، وتخضع له علاقات الناس أمرا ونهيا وتوجيها، وهي التي قال عنها الدكتور محمد مفتاح: "المفاهيم، إذن، هي بمثابة المقولة أو الفئة أو المجموعة تسمح بتصنيف الوقائع ضمن مفاهيم - مقولات محدودة جدا...". - المفاهيم معالم: نحو تأويل واقعي، الدكتور محمد مفتاح، ص: 10. واعتبر المفهوم في موضع آخر: "أعلى درجة لتحصيل المعرفة النظرية والعملية لإنجاح الإنسان في هذا الكون، لأن المفهوم منظم للحس وللإحساس." - "ما المفهوم؟"، بحث منشور ضمن أعمال ندوة: المفاهيم تكونها وسيرورتها، ص: 19.

² - ويوجد من اعتبر الدين أو الأديان أساسا لتحقيق السلام، كما يستفاد -مثلا- من كتاب: دور الأديان في السلام العالمي الذي اشتمل على بحثين، أولهما تحت عنوان: موقف الإسلام من السلام العالمي، لمحمد سعيد رمضان البوطي، والثاني بعنوان: الديانات الإبراهيمية الثلاث، لمؤلفه هانز كينغ. وهذا يدل على الأهمية الكبيرة للدين عموما، ولا سيما حين نسمع من يُروج لأن الدين يدعو إلى العنف والتطرف. وينظر في هذا الأمر أيضا مجلة الثقافة العالمية، العدد: 186، السنة الثانية والثلاثون، نوفمبر-ديسمبر 2016، وملف العدد هو: حلقة نقاشية.. حوار الأديان.

³ - قال علي شريعتي: "فاعتقادنا بدين لا نعرف عنه يكون مساويا لاعتقادنا بأي دين آخر". تاريخ ومعرفة الدين، علي شريعتي، ص: 203. يقصد أنا لا نعرف عنه شيئا أو لا نعرفه.

⁴ - من مناهج بناء المفاهيم التي اطلعت عليها ودرستها قبل الانتهاء إلى هذا البحث: ما نجده عند المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وعند الدكتور عبد الله العروي والدكتور محمد مفتاح، ثم مناهج اهتمت ببناء المفهوم القرآني ومنها ما نجده عند الدكتور محمد أحمد خلف الله والدكتور الشاهد البوشيخي. وبعض تلك النماذج بين أصحابها منهجهم وعرضوا له تطبيقات مثل المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدكتور الشاهد البوشيخي، وأخرى عرضت مفاهيم محددة قمت بدراستها واستخرجت منهجها في البناء. وأرجو من الله أن ييسر أمر نشرها من بعد. وسأذكر أسماء كتبهم التي اعتمدتها في لائحة المصادر والمراجع.

⁵ - هو محمد عبد الله بن محمد بن حسين دراز، ولد في محافظة كفر الشيخ بمصر سنة: 1894م، تقلد وظائف علمية كبيرة، وله أعمال علمية غزيرة ومؤلفات كثيرة، منها دستور الأخلاق في القرآن الكريم الذي نال به درجة الدكتوراه باللغة الفرنسية من جامعة السوربون عام 1948م وتم نشره عام 1950م، ثم نشر بعد ذلك بعشرين سنة، بترجمة عبد الصبور شاهين. وتوفي محمد دراز عام 1958م عندما كان في لاهور في باكستان مثالا لمصر في مؤتمر الثقافة الإسلامية.

⁶ - هو علي بن محمد تقي شريعتي، ولد في منطقة خراسان عام 1933م، وهو مفكر شيعي معتدل، توفي عام 1977 في لندن، وقد خلف من ورائه مؤلفات غزيرة، جمعت بين الأدبي والفلسفي والثوري. - اقتبست هذه الترجمة المختصرة من كتاب محمد خاتم النبیین: من الهجرة حتى الوفاة، علي شريعتي، بقلم إبراهيم دسوقي، ص: 19-26.

⁷ - الدين: بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، محمد عبد الله دراز، ص: 235.

⁸ - محمود محمد أحمد شاکر، ولد في الإسكندرية بمصر سنة 1909م، بدأ دراسته في الشعبة العلمية، ثم تخصص في البحث الأدبي وتحقيق كتب التراث، وله مقالات كثيرة منشورة، ظهر من خلالها طول باعه في الأدب والحجاج وفي النقد والتحليل، وله تحقيقات لعدد من الذخائر العلمية التراثية، وكانت تحدوه في ذلك كله رغبة في إعادة مجد الحضارة الإسلامية والعربية معا، بعد أن طالهما التهميش والتغيب في واقعنا المعاصر، وتوفي عام 1997م.

⁹ - عزمي بشارة من مواليد الناصرة سنة 1956، مفكر وأكاديمي وكاتب سياسي وأديب فلسطيني، له إنتاج فكري غزير، في مجالات المنهج المدني، ونظريات القومية وما أسماه "المسألة العربية"، والدين والعلمانية، وهو يشغل حاليًا منصب مدير عام المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. - اقتبست هذه الترجمة من موقع ويكيبيديا، <https://ar.wikipedia.org/wiki/>، بتاريخ 2020/01/09، عند الساعة 11:30 صباحا. وكان لعزمي بشارة إسهام في إعداد مشروع معجم تاريخي للغة العربية، وقد ذكر ذلك بنفسه في تقديم كتاب: "نحو معجم تاريخي للغة العربية، لمجموعة من المؤلفين، وتحدث فيه عن اهتمامه الشخصي بالنهوض باللغة العربية، وبضرورة الحفاظ عليها وتطويرها، وحكى جهده في البحث عن سند لمشروع المعجم التاريخي للغة العربية، كما بين في تقديمه أهمية هذا المعجم وقيمه العلمية والمعرفية ونتائجه المتوقعة. - ينظر الصفحة: 13 وما بعدها. وقد نهبت على هذا الأمر لأن له ارتباطا بموضوع هذا المقال، من جهة اهتمام عزمي بشارة بالمفاهيم وبنائها، تبعا لاهتمامه بالنهوض باللغة العربية.

¹⁰ يُنظر كتاب: المتنبّي: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاکر، ص: 06 وما بعدها. وقد ذكر فيه محمود شاکر منهجه في التعامل مع اللفظ والمعنى من الشعر، فقال: "ثم أندوقهما تذوقا بعقلي وقلبي وبصيرتي وأنا ملي وأنفي وسمعي ولساني." ص: 06. ثم قال في موضع آخر: "فأخذت أهبطي لتطبيق هذا التذوق على كل كلام، ما كان هذا الكلام"، ص: 07. وبعد ذكر تجربته البحثية مع مختلف الكتب التراثية من علوم شتى، قال: "أمدتني

هذه التجربة الجديدة بخبرات جمّة متباينة متشعبة، أتاحت لي أن أجعل منهجي في تذوق الكلام منهجا جامعا شاملا متشعب الأنحاء والأطراف، يزداد مع تطاول الأيام رحابة وسعة، وحدة ومضاء، ونفاذا ودقة، وشمولا واستقصاء. " ص: 08.

11- أباطيل وأسمار، محمود محمد شاکر، من الصفحة: 402 إلى الصفحة: 441.

12- أباطيل وأسمار، ص: 413.

13- وما قاله في هذه المقالة: فالدين على قدر ما بلغنا من اللغة، هو في الأصل الحال التي يخضع لها الإنسان خضوعا طارئا أو مستمرا، هكذا قدرته. " أباطيل وأسمار، ص: 414. وهذا التقدير يؤكد أن ما ضمنه محمود شاکر في مقالتي من حيث الدلالات اللغوية للدين بناه على منهجه الخاص في البحث والفهم، وهو أهل لذلك، لما هو معلوم من مكانته العلمية والأدبية، ومن قدرته على التحقيق والتدقيق في الدلالات والمعاني، كما يظهر في مؤلفاته وتحقيقاته.

14- المعاني التي ذكرها شاکر هي: الحال، والقهر، والخضوع، ودوام الغلبة، والطاعة، والحساب والمجازاة، والذل والاستعباد، والسياسة، ثم قال: "وقد انتهى معنى "الدين" إلى معنى الخضوع لمعبود معظم لا يملك المرء خلافه ولا معصيته (...)" أباطيل وأسمار، ص: 427-428.

15- أباطيل وأسمار، ص: 428.

16- ص: 429، وقد ذكر المعنى الجامع للدين قبل ذلك في ص: 416.

17- لم يتجاوز محمود شاکر ذلك إلى دلالات كل صيغة في نفسها، أو سبب استعمال صيغة دون الأخرى، كأن يجيب عن أسئلة مثل: لماذا ورد بصيغة الإضافة أو بغيره من الصور، ولماذا وقع تعريفه في موضع وتنكيهه في آخر، ودلالات الصيغ التي ورد بها من الاسم والفعلية. وهذه الأمور مما نجد عند الباحثين في المصطلح على منهج الدراسة المصطلحية الذي بدأه الشاهد البوشيخي، وتابع التأليف فيه تنظيرا وتطبيقا عدد من الباحثين المغاربة على وجه الخصوص. وينظر في ذلك كتاب: مفهوم الأمر في القرآن الكريم دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، للأستاذة الدكتورة جميلة زيان، 70/01.

18- سورة النور، آية: 25.

19- أباطيل وأسمار، ص: 440.

20- سورة الحج، آية: 77.

21- سورة آل عمران، آية: 17.

22- ويمكن الرجوع إلى كتاب أباطيل وأسمار لمزيد من التبين لهذا الأمر، ص: 436 إلى 440.

23- أباطيل وأسمار، ص: 419.

24- يُنظر -مثلا- في ذلك كتاب: علم مقارنة الأديان: أصوله ومنهجه ومساهمة علماء المسلمين والغرب في تأصيله، حسن الباش. وقد أفرد المؤلف فصولا تطبيقية من كتابه هذا لإجراء مقارنات على عدة مستويات بين الديانات السماوية المعروفة وبين ما أسماها عقائد مستحدثة، ص: 89 وما بعدها.

25- ينظر في هذا الأمر كتاب بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية، لمجموعة من المؤلفين، تقدم طه جابر العلواني.

26- الدين والعلمانية في سياق تاريخي: الجزء الأول، عزمي بشارة. من الصفحة: 303 إلى الصفحة: 402.

27- الدين والعلمانية ص: 305.

28- لقد انتقد علي شريعتي هذا المنهج في بيان معنى الدين، فقال: "إن الطريقة العلمية في البحث هي التي يجب أن يكون التعريف فيها في نهاية البحث وليس في بدايته (...). يجب أن يكون كل ما نقوله هو مقدمة واستدلال من أجل الوصول إلى التعريف" إلا أن هدف عزمي بشارة يبرر هذا المنحى الذي اتبعه في تعريف الدين، وهو التوصل إلى أن المنهج العلماني هو الكفيل بذلك والقادر على استجلاء مفهومه. كما أن هذا الذي يقترحه شريعتي يمكن بحثه من خلال القرآن الكريم على أحسن وجه؛ لأنه فصل القول في أمور الفطرة والتدين لدى أقوام مختلفة، وفي مشتملات الدين الصحيح والسقيم وغيرها. ويبقى الجانب الذي اقترحه شريعتي داخلا في البحث العلمي الاجتماعي، الذي له أهميته، وقيمتة المعرفية.

29- الدين والعلمانية، ص: 308. لكن، إلى أي حد كان مصيبا في هذه النتيجة؟ ثم ألسنا في حاجة إلى مزيد من التتبع لدلالات الدين في معاجم لغوية أخرى للحزم بأي نتيجة؟ وهذا باب لمزيد من البحث، وبخاصة أن من أهم ما يجب استخلاصه من المعاجم، الأصل الدلالي للكلمة المدروسة؛ مثل ما عند ابن فارس الذي أرجع معاني الدين إلى أصل واحد، هو أنه "جنس من الانقياد والذل" -مقاييس اللغة، مادة "دين".

30- الدين والعلمانية، ص: 307. وينظر كتاب العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: 170هـ)، باب الدال والنون و (وئي) معهما، مادة

"دين".

³¹ - الدين والعلمانية، ص: 310.

³² - سورة الروم، آية: 30. ويلاحظ عليه أنه اكتفى بالرجوع إلى ما أورده السيوطي جلال الدين في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"، وإن كان غيره أولى، كما في تفسير مجاهد مثلاً، وفيه: "عن مجاهد يعني: «لدين الله». أخبرنا عبد الرحمن، نا إبراهيم، نا آدم، نا ورقاء، عن المغيرة، عن إبراهيم مثله، قال: "لا تبديل لدين الله". - تفسير مجاهد، ص: 539. لم ينسبه مجاهد لابن عباس رضي الله عنه، ونجد سند هذا التفسير عند الطبري في تفسيره منتهياً عند مجاهد أيضاً. - جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: 310هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، 98/20. الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، سنة: 2000م.

³³ - الدين والعلمانية، ص: 324.

³⁴ - تاريخ ومعرفة الدين، ص: 229-230.

³⁵ - الدين والعلمانية، ص: 324.

³⁶ - الدين والعلمانية، ص: 330.

³⁷ - انظر ص 330 من المصدر نفسه، وفيه: "إخوان الصفاء، رسائل إخوان الصفاء، تحقيق بطرس بستاني، 4 مج (بيروت: دار صادر، 1957)،

ج4، الرسالة الأولى: في العلوم الناموسية الإلهية والشرعية، فصل في أحناس الآراء والمذاهب، ص: 425.

³⁸ - لقد انطلق بشارة في دراسة هذه القضية من إشكاليين، حيث قال: "فهل الترجمة ضرورية؟ أم أننا نسمي الظواهر نفسها بأسماء مختلفة؟" ينظر الصفحة: 344 وما بعدها. فالبحث عن ضرورة الشيء وطبيعته، أولى ما يهتم به الدارسون كما هو معلوم، وإشكالات الترجمة لا تنتهي عند هذا الحد، وخاصة إذا تجاوزنا ما يعالجه عزمي بشارة في كتابه إلى الترجمة الخاصة بالألفاظ نص معين من لغتها الأصلية.

³⁹ - مثل ما عند الباحث جوناثان سميث وصامويل جونسون، ص: 341 وما بعدها.

⁴⁰ - الدين والعلمانية، ص: 347-348.

⁴¹ - مثل: مالروي ناي، وجون هيك، وروبرت تماريت، وفرويد، ودوركهايم، وغيرهم. وهؤلاء يمثل كل منهم مدرسة معينة تتبنى كل منها نظرية خاصة في الدين.

⁴² - قال عزمي بشارة بهذا الصدد: "للتدليل على مثل هذه الحالة التي تجري فيها محاولة إخضاع الأدوات السوسيولوجية للمقولات الدينية يمكن التطرق إلى مثال متطرف لكتاب أعدّ للتدريس في جامعة محمد بن سعود الإسلامية". وقال في الهامش: "هو كتاب نبيل السمالوطي الذي يعرض فيه نظريات علم الاجتماع في جزئين صغيرين، انظر: السمالوطي، الدين والبناء والمجتمع. الدين والعلمانية، الصفحة: 372-373.

⁴³ - جملة ما عُرفت به العلمانية هو أنها فصل للدين عن الدولة، ولم يخرج عزمي بشارة -عموماً- في بيانه لها عن هذا التعريف، إلا أنه فرق بين العلمانية والعلمنة، ويفهم من كلامه عموماً بأن العلمانية أنها فصل للمجالين أو تمييز أو تمييز؛ بحيث لا تكون الدولة أو المجتمع أداة في يد الدين، يتحكم فيها كيف يشاء، سواء في المستوى العملي الذي يمثله واقع الناس وانتقالهم من حال إلى حال، أو على مستوى المعرفي المنهجي. ينظر الدين والعلمانية، ص: 405 وما بعدها. ومما قاله في هذا السياق: "والعلمنة باعتبارها صيرورة تاريخية تمس مجالات اجتماعية متعددة، كما تمس الفكر الإنساني، هي عملية التمايز المستمرة بين قطاعات يعيد التمايز تعريفها، مثل العلم والأسطورة، والمقدس والدنيوي، والدين والدولة، وغيرها". ص: 406. ثم قال بعد ذلك: "نحن نتعامل مع العلمانية في هذا الكتاب لا باعتبارها صفة أو معادلة للتطبيق المباشر من المنتج إلى المستهلك، بل هي نتاج عملية تمايز اجتماعي بنيوي وتغير في أنماط الوعي كصيرورة تاريخية، وهي صيرورة تمرّ بما المجتمعات كافة". إلى أن قال: "تنحو العلمانية (...) إلى جعل مرجعيتها مرجعية قيمية ومعنوية "معيارية" غير دينية". ص: 407.

⁴⁴ - الدين والعلمانية، ص: 401. وهذا الأمر هو الذي نبهت عليه من قبل، وهو أن عزمي بشارة بما عرضه من بيان مفهوم الدين إنما يجهل لهذا القول.

⁴⁵ - انظر ما قاله عبد الهادي بوطالب عن تعريفات العلمانية، بحث تحت عنوان: "العلمانية نظرية سياسية حديثة تسعى إلى عدم الخلط بين الديني والدنيوي"، منشور ضمن كتاب لمجموعة من المؤلفين موسوم ب: "العلمانية: مفاهيم ملتبسة"، ص: 14.

⁴⁶ - انظر كتاب: "التطرف العلماني في مواجهة الإسلام (نموذج تركيا وتونس)، يوسف القرضاوي، ص: 17. وأقول: حتى وإن اعتبرنا العلمانية معيارية كما ذهب عزمي بشارة؛ أي أنها ميزان للحكم، فإنها تتخذ موقفاً محايداً من واقع الدين، وتركز ضرورة تمييزه عن الحياة العامة، لتأكيد أن الاتفاق بين شرائع المجتمع أو الإنسانية لا بد لينجح من تحييد الدين، لأنه يسهم في اتخاذ المواقف العدائية بين الأطراف. وقد قال عزمي بشارة عن التوصيف السياسي للعلمانية من طرف فرح أنطون: "فإننا نجد توصيفه السياسي لها دقيقاً، فهو يراها في الأصل عملية تحييد الدين من جانب أبناء الأمة (...) لكي يتحدوا فيما بينهم اتحاداً حقيقياً". - الدين والعلمانية، ص: 406.

47- أقول هذا بالرغم من أن محمود شاکر قد سلك مسلك التحقيق والتدقيق أو التدقيق كما يسميه، وأن عزمي بشارة قد حاول تغطية مجالات معرفية متعددة في حديثه عن مفهوم الدين، لأن كلا منهما كان له مقصد غير الذي أصبو إليه شخصيا من خلال هذا المقال، الذي يريد بناء مفهوم الدين لذاته، ولما يبنى عليه من تصورات وتحليلات عملية، في حين أن محمود شاکر -مثلا- عمل في بيانه للدين على تأكيد ما انطلق منه من الإشكال الواقع في فهم الكلمة عموما، وعزمي بشارة انطلق من قناعاته التي تقول بأن النموذج العلماني هو الأصلح لبيان المفهوم.

48- سورة المائدة، آية: 48.

49- من بين الكتابات التي أبدعت في هذا المجال: إسلامية المعرفة: المبادئ العامة-خطة عمل-الإنجازات، إسماعيل راجي الفاروقي. وكتاب: منهجية القرآن المعرفية، محمد أبو القاسم حاج حمد. ومن المؤلفات التطبيقية لإسلامية المعرفة كتاب: التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي، محمد عز الدين توفيق.

50- من المناهج الدراسية التي اعتمدت الإحصاء وبنيت عليه نتائج علمية، ما أنجزه رواد منهج الدراسة المصطلحية؛ هذا المنهج الذي أبدعه الشاهد البوشيخي، ويمثله ويقوم بأبحاثه وينشرها معهد "مبدع" الكائن مقره في مدينة فاس المغربية، وتقوم دراساته على ثلاثة مناهج أساس؛ هي الإحصائي والوصفي والتاريخي، وعليها تبنى النتائج التي تستنبط بالتحليل. ومن الدراسات العلمية في الباب: مفهوم الأمر في القرآن الكريم: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، للأستاذة الدكتورة جميلة زيان.

51- نجد هذه الأمور نظريا في كتب علوم القرآن، وتطبيقيا في عدد من التفسيرات، مثل نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، وملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، وقد اهتم بهذه الأمور كثير من المفسرين، ومن المعاصرين الذين أولوا هذا الأمر اهتماما كبيرا سيد قطب في تفسير "في ظلال القرآن"، ومحمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير. ومن الأبحاث العلمية الرصينة المعاصرة في الباب: التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي، أحمد أبو زيد.

52- لقد عمل عدد من الدارسين اليوم على تطبيق مناهج لغوية مختلفة على القرآن الكريم وتفسيره، ومنها: البنية والأسلوب في التراكيب القرآنية وقضية الإعجاز: مقارنة أسلوبية لسانية، أحمد نصيف الجنابي. وكتاب التناص القرآني: دراسة في أشكال العلاقة بين الآيات القرآنية الكريمة، ياسر رضوان. ومنها علم دلالة القرآن: منهجية التحليل الدلالي في تفسير القرآن، زياد عبد الرحمن الرواشدة. وكتاب: توظيف علم الدلالة المعجمي في حقل التفسير القرآني، عبد الرحمن طعمة.

53- إن في اعتماد أي منهج، لزم الحذر من عملية بناء المفهوم القرآني، وخاصة مفهوم الدين؛ لأن القرآن الكريم كلام رب العالمين، وهو ليس كغيره من الكلام. ويشبه هذا ما قاله أحمد بسام ساعي من "أن أي تفسير بشري للقرآن، أو تحليل لغوي، أو كشف إعجازي بلاغي أو لغوي أو علمي، مهما اتخذت من أشكال وأساليب موضوعية، تبقى في حدود الترجيح وتخضع لاحتمالات الخطأ البشري". -المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، أحمد بسام ساعي، 63/01. فالتعامل مع القرآن الكريم، والاستنباط منه يجب أن يكون لائقا به؛ لأنه كلام رب العالمين، فلا يكون تطبيق تلك المناهج أو غيرها عليه مثل ما يكون على غيره.

54- ولابد من التنبيه على أن ترتيب السور كما هي عليه في المصحف المتلو، قد يفيد -هو الآخر- في بلوغ نتائج مهمة تضيء المصطلح وتبين المفهوم، من خلال ما قد يُستنبط من توزيع آيات المفهوم في القرآن الكريم. مع إجراء موازنة بينه وبين الترتيب التاريخي لنزوله، وبيان الفرق بينهما من خلال نتائج كل ترتيب، وعلاقة كل منهما بحياة الناس العملية.

55- من الفهارس التي اعتمدت أسلوب التصنيف، وسارت في مثل هذا الذي ذكرته هنا: تصنيف آيات القرآن الكريم، محمد محمود إسماعيل، 05 مجلدات، دار اللواء بالرياض، الطبعة الأولى، سنة: 1993. إلا أنه لم يتعمق في التصنيف إلى المستوى الذي أقرحه هنا.

56- من التصنيفات الممكنة لآيات لفظة الدين بعد المكي والمدني: آيات إخلاص الدين، وآيات إضافة الدين إلى الله أو إلى خلقه بمختلف أصنافهم من مؤمنين ومنافقين وكفار، وآيات عن الدخول في الدين واتباعه وابتغائه والتدين به، والخرج في الدين، والإكراه في الدين، وغيرها مما يضيق المقام بعضها كلها. ومن الأمثلة الموضحة لهذا ما أنجزته حول مفهوم خاصية الربانية، حيث صنفت آيات ربانية الدين إلى ثمانية تصنيفات، هي:

- تصنيف الآيات بالنظر إلى مكان النزول ووقته؛ إلى المكي والمدني.

- تصنيف الآيات بالنظر إلى الفاعل فيها، وهو الله عز وجل رب العالمين، وذلك إلى آيات ذكر فيها اسم رب العالمين، أو رب، وآيات استعمل فيها اسم الجلالة الله، وآيات لم يستعمل فيها أي اسم، وفيها ضمير المتكلم الذي هو الله عز وجل، ثم آيات تضمنت الفعل المبني للمجهول.

- تصنيف بحسب طرق الربانية أو وسائلها، والمقصود منها تلك الأفعال التي دلت على ربانية الدين، مثل نزوله أو إرساله أو إلهي به.

- تصنيف بحسب الأنبياء والمرسلين الذين ذكروا في سياق الآيات المتحدثة عن ربانية الدين.
- تصنيف الآيات بحسب المخاطبين بالآيات، وهم المؤمنون، وأهل الكتاب، والمشركون.
- تصنيف بحسب خصائص الربانية، وأبرزها الخلق، والشمول، والحق، والهدى.
- تصنيف بحسب وجود لفظة "الدين" في آيات القرآن الكريم.
- تصنيف بحسب الألفاظ التي تضمنتها الآيات دالة على ما يخالف ربانية الدين.

وهذه الأصناف الثمانية قابلة للزيادة عليها، بقدر جهد الباحث في القراءة والتدبر.

- ⁵⁷ - من الدراسات التطبيقية التي تفيد في هذا الأمر كتاب: المعجزة: إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، أحمد بسام ساعي.
- ⁵⁸ - وتوضيحا لهذا الأمر أقول: إن الذي يريد البحث في الدين -مثلا-، يحتاج أولا إلى تحديد مكوناته وخصائصه وغير ذلك، وكل مكون أو خاصية يدل عليها لفظ يحتاج هو الآخر إلى بيان لغوي دقيق، لتحديد أصل معناه، وخاصة أننا اليوم بعيدون عن معين اللغة العربية، مما نكون معه قاصرين عن استيعاب المعاني بدقة ما لم نعتمد المعاجم المختلفة في جميع مراحل البحث.
- ⁵⁹ - توجد اليوم مكتبات الكترونية تساعد على الرصد التاريخي الدقيق والاستيعاب المعرفي لما في التفاسير، مثل المكتبة الشاملة المعروفة، والجامع التاريخي للتفسير الذي أنجزته: مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع)-فاس.
- ⁶⁰ - من الكتب التي اهتمت بهذا الأمر من الجهة الإسنادية كتاب: الصحيح المسند من أسباب النزول، لأبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي. إلا أن الذي أقصده بالإضافة إلى هذا الأمر، موازنة ما ورد في أسباب النزول مع واقع الأمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربطه بالأسباب العامة الممكنة للآية أو الآيات، وخاصة أن عددا من أسباب النزول لا تستقيم مع بعض الآيات من حيث قياس عموم واقع الناس مع خصوص السبب. ومن ذلك ما أفاد به القاسمي في تعليقه على أسباب نزول قول الله تعالى: "يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم" -سورة الحجرات، آية: 13. وهي آية ذكر لها المفسرون عدة أسباب نزول تحتاج إلى نظر وتقويم، ناهيك عن ضعفها كلها كما أفاد به عدد من المفسرين.
- ⁶¹ - من الكتب المفيدة للقيام بهذا الأمر كتاب زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية. وكتاب: القرآن الكريم والأصول في تدبره: تمعنات في تعاليمه وخصائصه، محمد حسين صفوري.
- ⁶² - مما سبق أن قدمته في بحثي لمفهوم الربانية، فصلا تحليليا درست فيه مكونات هذا المفهوم؛ تلك المكونات التي لا بد منها للقول بربانية الدين. ومن المؤلفات التي اهتمت بالشبكات المفاهيمية في القرآن الكريم كتاب: خارطة المفاهيم القرآنية، الدكتور سيد عمر. وقد استهله كاتبه بقوله: "تمثل هذه الدراسة محاولة لإعادة بناء المفهوم السياسي ضمن مشروع أشمل لإعادة بناء المفاهيم وفق المرجعية القرآنية". ص: 07.
- ⁶³ - خاصية المفهوم هي ما تميز به عما سواه وتفرد به، بحيث يمكن فرزه بواسطتها فلا يختلط بغيره من المفاهيم. مثل الكلام الذي احتص به الإنسان أو العقل والفكر، فهي تميزه عن غيره من المخلوقات الحية، ومثاله في الدين خاصية الربانية لدين الإسلام.
- ⁶⁴ - من الكتب المفيدة في المقاصد التي أدعو إليها هنا: التفكير المقاصدي: مراجعات لترتيب العقل المسلم، جاسر عودة. ومما قال فيه بعد أن عرض عددا من الأمراض التي أصابت فكر الأمة: "فقد مكنت تلك الأمراض العقلية الشائعة للجهلاء، ورفعت السفهاء، ومجدت الاستبداد، وألهمت الطغاة، وعظمت التنمية، وأفسدت الدين، وقسمت المجتمع، وحيرت الشباب، وصدت غير المؤمنين عن الهدى، وأخرت أمتنا إلى ذيل الأمم في كل مجال". - ص: 10-.
- ⁶⁵ - ولا يقال إننا غير محتاجين لهذه الأبحاث، بل إننا من صميم مسؤوليات الباحثين المسلمين اليوم، وأقول كما قال محمود شاكر عن الإسلام: "وهو وإن لم يكن مجهولا منذ جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحق من ربه، إلا أنه انتهى إلى أن يكون كالمجهول، بعد أن غلبت على ديار الإسلام حضارة نابعة من تراث أهل الكتابين المذكورين في كتابنا المنزل، وذلك لأنهم يستخدمون لفظ "الدين"، للدلالة على شيء يأبى ديننا نحن أن يسلم بدلالته إباء مطلقا. ثم شاع اللفظ عند عامة أهلنا بالمعنى الذي جاء في تراث أهل الكتابين، فدخل على معنى "الدين" ما ليس منه، وحدث اختلاط وفساد، كلاهما يؤدي إلى سوء التفكير، وإلى ضلال النظر عن الحق الذي أمرنا باتباعه". - أباطيل وأسمار، الصفحة: 417. وهذا الذي قرره شاكر ما يزال واقعا نعيشه، بل إنه استشرى أكثر من ذي قبل، وهو الذي قال عنه طه جابر العلواني: "نلاحظ مفهوم "الدين" -على سبيل المثال- وما حدث له بعد عملية غزو المفاهيم المجلوبة". إلى أن قال بأن هذا الغزو تسبب في أن جعل "من الدين متغيرا تابعا للمفاهيم الفكرية المجلوبة تارة، وجزءا من المكون القومي تارة ثانية، وعقبة في طريق التقدم تارة ثالثة، وممانعا من التطور تارة أخرى. وهو -في الوقت نفسه- لدى جماهير الأمة جوهر وجودها". بناء المفاهيم، 11/01.